

تنعى أسرة مجلة أسطور للدراسات التاريخية ممثلة برئيس تحريرها الدكتور عزمي بشارة،  
وهيئة تحريرها ومجلسها الاستشاري العلمي، الدكتور

## محمد طاهر المصوري

أحد أعمدة لجنتها العلمية وعضو هيئة تحريرها، الذي تعجل الرحيل بعد أن أفعمنا بمحبته  
وأسمعنا ألطف الكلمات وأكثرها حكمةً، وغنى بالمعرفة، مؤمنة بأنه سيقبى حياً مؤثراً عبر  
إنجازاته العلمية. وتنوّه المجلة بأنّ العدد الحالي قد حمل في الكثير من مقالاته ومواده  
بصمات الأستاذ الراحل.

وستولي المجلة كما المركز العربي ما تركه الأستاذ الراحل من نتاج كل اهتمام يليق بمكانته.



## محمد الطاهر المنصوري: المؤرخ والإنسان (1955 - 2016) Mohamed Tahar Al Mansuri: the Life of a Historian (1955 - 2016)

في الوقت الذي كنا نتأهب فيه لإصدار العدد الرابع من مجلة "أسطور"، نزل خبر صاعقة: محمد الطاهر المنصوري في ذمة الله. لم نصدق الخبر أو بالأحرى لم نكن نريد تصديقه... لم يكن الطاهر المنصوري عضواً عادياً في هيئة تحرير مجلة "أسطور" أو أستاذاً كسائر الأساتذة في معهد الدوحة للدراسات العليا، كان رجلاً استثنائياً بكل المقاييس. لم ينل منه المرض الذي صارعه صراعاً بطولياً، ولم يشنه عن عمله الدؤوب إن على مستوى البحث أو على مستوى التدريس. في مساره العلمي تعددت انشغالاته بين مترجم للأعمال التاريخية الرائدة، ومنغمس في الدراسات البيزنطية، ومهتم بالتاريخ التونسي خلال العصر الوسيط، ومتابع مواكب لما ينشر في البلاد العربية في الدراسات التاريخية.

### المجال الأول: في أعمال ترجمة الدراسات التاريخية

ترجم الطاهر المنصوري من اللغتين الفرنسية والإنجليزية إلى اللغة العربية، ولم يكن اختيار الطاهر المنصوري للنصوص التي يريدتها ترجمتها اعتباطياً، فقد تجاوب مع حاجتين، الأولى وتهتم مجال اشتغاله وهو اجسه المنهجية والنظرية، والثانية ترتبط بوعيه بضرورة تعميم المعرفة الغربية الجديدة في البلاد العربية. فهو يرى أن الحاجة لترجمة نصوص فرنسية وإنكليزية أصبحت ملحة، خاصة بعد التراجع الذي عرفته اللغات الأجنبية في الجامعات العربية. وفي الوقت نفسه عاب الطاهر المنصوري على ترجمة الأعمال التاريخية إلى اللغة العربية جنوحها نحو التسرع وانعدام الدقة في ترجمة المصطلحات. تناول محمد الطاهر ترجمة ثلاثة أعمال كبرى:

**الأول** بعنوان "التاريخ الجديد"<sup>(1)</sup>، وهو عمل جماعي أشرف عليه أحد مؤسسي مدرسة الحوليات الفرنسية جاك لوغوف Jacques Le Goff. وقد كانت ترجمة هذا العمل بتكليف من المنظمة العربية للترجمة، ونشر الكتاب ضمن منشورات المنظمة العربية للترجمة، في بيروت سنة 2007. ويتناول الكتاب عشرة مواضيع مهمة كلها تتعلق بقضايا نظرية في الدراسات التاريخية، عولجت فيما سبق كالتاريخ والمدى الزمني الطويل، وتاريخ الذهنيات، وتاريخ المهمشين، والأنثروبولوجيا الثقافية، والتاريخ الآني، وتاريخ المتخيل، وغيرها من المواضيع. والدراسات في النهاية تلح على ضرورة الاهتمام بما سمي بالمواضيع "الخشيسة" أو المهمشة في الدراسات التاريخية.

إنّ الاهتمام بالتاريخ الجديد عند المنصوري نابع من قناعته بضرورة دراسة هذه الظواهر التي عني بها هذا التاريخ في المجالات العربية والإسلامية، وكذلك رغبته الجامعة في الانفتاح على العوالم المعرفية الإنسانية والاجتماعية من أجل فهم أعمق لها. فهو لم يقف عند ترجمة هذا العمل فحسب، بل سعى إلى وضع مقدمة مفصلة تستعرض تطور البحث التاريخي في فرنسا تبرز مدى إحاطة الباحث بالنقاشات الدائرة بين مؤرخي مدرسة الحوليات من أجل تطوير الكتابة التاريخية. وحرصاً منه على الدقة وضع قائمة بالمصطلحات التي صادفها في الكتاب مع ترجمتها ترجمة دقيقة إلى اللغة العربية، كما وضع قائمة طويلة بالمراجع العربية والأجنبية التي اعتمدها. ولم تكن الترجمة بالنسبة إلى الطاهر سوى توطئة لما باشره في أعماله، إذ سعى إلى تطبيق ما ورد في الكتاب من دراسات على العالم العربي الإسلامي بعيداً عن الإسقاطات التي لا تراعي السياقات التاريخية.

أمّا الكتاب **الثاني** فكان بعنوان "التاريخ المفتت من الحوليات إلى التاريخ الجديد"<sup>(2)</sup> من تأليف المؤرخ الفرنسي فرانسوا دوس François Dosse، وترجم بدعم من مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم ونشر ضمن منشورات مركز الوحدة العربية ببيروت سنة 2009. في "التاريخ المفتت" يسعى محمد الطاهر المنصوري إلى إحاطة القارئ العربي بالتطورات التي عرفتها الكتابة التاريخية في الغرب، وعلى وجه الخصوص في فرنسا وكيفية تعامل أجيال المؤرخين من الحوليات إلى التاريخ الجديد.

وإذا كان الكتابان الأول والثاني يترجمان قناعة منهجية لدى الباحث، فإنّ الكتاب **الثالث** وعنوانه "إسكان الغريب في العالم المتوسطي: السكن والتجارة والرحلة في أواخر العصر القديم وفي العصر الوسيط"<sup>(3)</sup> جاء ليتجاوب مع قناعة لدى الطاهر المنصوري، وهي أنه لا مجال للحديث عن النقاوة العرقية أو الدينية أو اللغوية في عالم البحر الأبيض المتوسط. فقد كان هذا العالم مفتحاً لا تحول الحدود فيه بين التواصل وانتقال الأفكار والمعارف والتقنيات، وهو بالنتيجة مجال للتثاقف. ويرى الباحث أنّ هذا الكتاب مهم أيضاً من الناحية المنهجية، إذ يسمح بمعرفة اقتصادية واجتماعية شاملة انطلاقاً من جزئيات. فقد عالجت الدراسة موضوع ظاهرة الفنادق في البحر الأبيض المتوسط بصفاتها مؤسسية لإيواء الغرباء تتفاعل فيها الثقافات وتنصهر. ولعل الجهد الذي بذله الطاهر المنصوري في ترجمة هذا العمل، ورسالة الترجمة وسلامتها، جعلاً مؤسسة زايد تمنحه الجائزة الأولى للترجمة سنة 2014.

وفي إطار الهم المنهجي نفسه وللغايات نفسها تندرج ترجمته الأخيرة لدراسة قصيرة لجيوفاني ليفي Giovanni Levi

1 Jacques Le Goff (dir.), *La Nouvelle Histoire* (Paris: Complexe, 2006).

جاك لوغوف، **التاريخ الجديد**، محمد الطاهر المنصوري (مترجم ومقدم)، عبد الحميد هنية (مراجع) (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2007).

2 François Dosse, *L'histoire en miettes* (Paris: la Découverte, 1987)

فرانسوا دوس، **التاريخ المفتت**، محمد الطاهر المنصوري (مترجم) (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2009).

3 Olivia Remie Constable, *Housing the stranger in the Mediterranean World: lodging, Trade, and Travel in the Late Antiquity and the Middle Ages* (Cambridge: Cambridge University Press, 2004).

أوليفيا ريمي كونستابل، **إسكان الغريب في العالم المتوسطي: السكن والتجارة والرحلة في أواخر العصر القديم وفي العصر الوسيط**، محمد الطاهر المنصوري (مترجم) (بيروت: دار المدار الإسلامي، 2013).

في موضوع "استعمالات البيوغرافيا"<sup>(4)</sup>. وعلى الرغم من أنّ هذه الدراسة الأصلية نشرت منذ أمد بعيد في مجلة الحوليات الفرنسية (1989)، فإنّ الباحث الطاهر المنصوري أصر على ترجمتها لما أصبح يكتسيه موضوع استعمال السيرة في الكتابات التاريخية العربية التي انفتحت على مناهج الحوليات والتاريخ الجديد ليبين أنّ البيوغرافيا ليست بالضرورة كتابة التاريخ من خلال السير، ولكنها - كما يقول - "منهج يسمح باستقراء حِقبة من الزمن في شتى مظهراتها وتعبيراتها من خلال تتبع سيرة الفرد. فيكون الفرد موضوع البيوغرافيا مَطِيّة أو مُرصة للمؤرخ لينبش التاريخ بشكل شمولي مُتّبعا مسار الفرد من خلال محيطه الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والثقافي وغيره من حقول التاريخ المُختلفة"<sup>(5)</sup>.

استفاد الطاهر قبل أن يستفيد غيره مما تُرجم من أعمال وما قرأه من أدبيات منهجية، فراح يكتب عن المواضيع التي أثارها لوغوف وزملاؤه، فأبدع في دراسة بعنوان "التحجب والتزّنر"<sup>(6)</sup> التي نشرتها دار تير الزمان باللغة الفرنسية سنة 2007، وقد خصها لتطور اللباس ورمزيته في البلاد الإسلامية، مبرزا أنّ اللباس سواء في البلاد الإسلامية أو في الغرب يعدّ "عنصرًا مميزًا وعلامة بارزة لهوية السطح أو للهوية الظاهرية". فاللباس في نظره يستطيع أن يرسم الفوارق والحدود الاجتماعية والجنسية والإثنية والمليّة داخل المجال العربي الإسلامي ويعبّر عنها. وقد استثمر محمد الطاهر المنصوري في هذا الكتاب النصوص التاريخية والجغرافية والأدبية.

## المجال الثاني: الدراسات البيزنطية

أما المجال الثاني الذي نبغ فيه الراحل فهو مجال الدراسات البيزنطية. فقد توجه محمد الطاهر المنصوري إلى فرنسا من أجل إتمام دراساته العليا، وارتمى في أحضان مجال قلما تخصص فيه الباحثون العرب. وهو مجال الدراسات البيزنطية. فناقش أطروحته للدكتوراه في موضوع العلاقات بين مصر وبيزنطة ما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر<sup>(7)</sup>. فقد أثار انتباهه وصول سلالتين في مصر وبيزنطة في اللحظة نفسها، وفي ظل ظرفية دولية أجبرتهما على التقارب والتعاون إلى درجة أنّ الاختلاف الحضاري والديني لم يكن عائقًا. لم يكتف الطاهر المنصوري بالاعتماد، ليطمئن بهذه الدراسة، عن المصنفات العربية التي تتضمن معلومات عن هذه العلاقات، بل سعى على استنباط مادة دراسته من النصوص البيزنطية والإغريقية على وجه الخصوص، واضطره ذلك إلى تعلم اللغة الإغريقية. وسعى أيضًا إلى الإلمام بالدراسات الغربية المتعلقة بالتاريخ البيزنطي، وهو ما يمكن أن يلمسه قارئ هذه الدراسة التي تأخر في نشرها باللغة العربية إلى سنة 2000. ولم يعن فقط بالتاريخ المباشر بين بيزنطة والعالم الإسلامي، بل عمل على دراسة هذه العلاقات في إطار شبكتي العلاقات الأوروبية والإسلامية. بعد دراسته عن العلاقات بين المماليك وبيزنطة، انغمس في التاريخ البيزنطي، وراح يبحث في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، فنشر العديد من الدراسات، ومنها على وجه الخصوص كتابه عن "الحياة الدينية في بيزنطة"<sup>(8)</sup> الذي اعتمد فيه النصوص البيزنطية الأصلية، ونتائج الدراسات الحديثة التي أنجزت في موضوع التاريخ الديني البيزنطي، مستلهماً المنهجيات الحديثة في مقارنة التاريخ الديني والثقافي.

ولأنه كان مهووسًا بالمصطلحات وتقعيدها، فقد أنجز قاموسًا عن "المصطلحات البيزنطية"<sup>(9)</sup>، نشر سنة 2003. كان الهدف من

4 Giovanni Levi, "Les usages de la biographie," *Annales: Économies, Sociétés, Civilisations*, vol. 44, no. 6 (1989), pp.1325-1336.

جيوفاي ليفي، "استعمالات البيوغرافيا"، محمد الطاهر المنصوري (مترجم)، مجلة أسطور للدراسات التاريخية، العدد الثالث، 2016، ص 25 - 38.  
5 المرجع نفسه، ص 26.

6 Mohamed Tahar Mansouri, *Du voile et du zunnâr: Du code vestimentaire en pays d'Islam* (Tunis: éd. L'Or du temps, 2007).

7 Mohamed Tahar Mansouri, "Recherches sur les relations entre Byzance et l'Égypte (1259-1453) d'après les sources arabes", Thèse doctorale, Toulouse, 1987 (Tunis: publication de la faculté des lettres, Mannouba, 1992).

8 محمد الطاهر المنصوري، الحياة الدينية في بيزنطة: من الانبعاث إلى القطيعة مع روما (صفاقس: دار الأمل للنشر والتوزيع، 2003).

9 Mohamed Tahar Mansouri, *Vocabulaire historique de Byzance* (Tunis: éd. Amal édition, 2003).

وضع هذا القاموس التعريف بالتاريخ البيزنطي من خلال مصطلحاته ورصد تطورها التاريخي. وقد استرعى اهتمامه الدور الذي كانت تضطلع به جزر المتوسط في العلاقات بين البيزنطيين والمسلمين وبين شرق المتوسط، وغربه. فراح يبحث في دراسة أخرى بعنوان "قبرص من خلال المصادر العربية"<sup>(10)</sup> نشرت سنة 2003، وهو المقتنع بضرورة تعدد النصوص في قراءة تاريخ العالم المتوسطي. لقد كان الطاهر يريد تمرير رسالة من خلال هذه الدراسة، وهي أنّ المصادر العربية لا تقل أهمية عن نظيرتها الأوروبية في إمطة اللثام عن تاريخ العالم المتوسطي، ولعله كان يستحضر تلك الدعوة التي وجهها مؤرخ البحر الأبيض المتوسط، فرناند بروديل Fernand Braudel، لزملائه في جنوب المتوسط وشرقه. لقد خرج الطاهر المنصوري في دراساته عن بيزنطة من قوحتين؛ قوقعة التاريخ الوطني التي ميزت البحث التاريخي في تونس بعد الاستقلال، وقوقعة التاريخ العربي وعدم انفتاحه على الدراسات البيزنطية على اعتبار أنّ التاريخ البيزنطي شأن أوروبي بامتياز ونظرة المؤرخين العرب إلى العلاقات البيزنطية الإسلامية في إطار صراع مستديم بين الإسلام والمسيحية. أفضى هذا الاهتمام بالعالم البيزنطي ومختلف الترجمات التي قام بها، وعلى الخصوص ترجمة "إسكان الغريب"، إلى تولد اهتمام آخر عند المؤرخ الباحث الطاهر المنصوري فأضحى يكرس بعضاً من أعماله للبحر المتوسط والعالم المتوسطي، وقد ترك قيد الطبع عمليين مهمين في هذا الباب يتعلق الأول بكتاب بعنوان: "التجارة المتوسطية في العصر الوسيط". والثاني تحت عنوان "أطلس العالم المتوسطي" وهو عبارة عن تحقيق ودراسة لنص مهم لأحد جغرافيين البلاد التونسية في العصر الحديث.

## المجال الثالث: تاريخ تونس

أمّا المجال الثالث الذي تألق فيه فقيدينا، فيتعلق بتاريخ تونس، وقد ربط في الكتابة عن تاريخ تونس اهتمامه بالتاريخ البيزنطي. ولعل من علامات ذلك إقدامه على ترجمة قيد النشر لكتاب دوني برنفل عن "التحصينات البيزنطية في إفريقيا". بيد أنّ أهم ما يترجم الاهتمام بتاريخ تونس كتابان:

الأول عن "الحمامات مدينة متوسطة"<sup>(11)</sup> الذي نشر باللغة الفرنسية سنة 2000، وتعود عنايته بهذه المدينة التونسية الصغيرة إلى ارتباطه العاطفي بها، فهي المدينة التي كان يسكن بها، وهي المدينة التي كان يعدّها ملهمته في كتاباته، ليس فقط في مجال الدراسات التاريخية فحسب، بل حتى في مجال السرد، فقد عرف عن الفقيه أيضاً إنتاجه في مجال السرد الأدبي عندما أنجز رواية بعنوان "مدرجات الصمت" (Les amphis du silence) والصادرة ضمن منشورات ارتحال في تونس سنة 2011.

الثاني عن "تونس في العصر الوسيط: إفريقية من الإمارة التابعة إلى السلطنة المستقلة"<sup>(12)</sup> وصدر عن دار صامد سنة 2015. ويأتي إصدار هذا الكتاب بعد مرور عشر سنوات من إصدار جماعة من المؤرخين التونسيين بإشراف هشام جعيط. ويمثّل هذا الكتاب الجزء الثاني في سلسلة خصصت لتاريخ البلاد التونسية. وهو مؤشر على أنّ الكتاب يقترح نفسه لمراجعة العديد من الأحكام وإعادة طرح القضايا وفق تمشٍ منهجي مختلف.

ومن بين القضايا المهمة التي أثارها الطاهر المنصوري مسألة النصوص والمصادر العربية المعتمدة لكتابة تاريخ إفريقية زمن التبعية للمشرق، وكيف تقاس بهذه النصوص درجة التبعية والاستقلال عن الدولة المركزية في المشرق. وقد استغل محمد الطاهر المنصوري إثارة قضية المصادر ليرى أنّ مؤرخ تونس ملزم بالانفتاح على النصوص البيزنطية والأوروبية التي من شأنها أن تساهم في فهم استقلال تونس وتبعيتها خلال المرحلة المبكرة من تاريخ إفريقية الإسلامي. ومن بين المراجعات التي يقترحها محمد الطاهر المنصوري ما يسميه بالتبعية الرمزية والاستقلال الفعلي، وقد عالجه المؤلف خلال الحقبتين

10 Mohamed Tahar Mansouri, *Chypre dans les sources arabes médiévales* (Nicosie: éd. Centre de Recherches Scientifiques, 2001).

11 Mohamed Tahar Mansouri, *Hammamet: histoire d'une cité méditerranéenne* (Tunis: éd. MED, 2000).

12 محمد الطاهر المنصوري، *تونس في العصر الوسيط: إفريقية من الإمارة التابعة إلى السلطنة المستقلة* (صفاقس: دار صامد للنشر والتوزيع، 2015).

الأغلبية والفاطمية.

وإضافة إلى هذه المراجعات عالج الكتاب، قضايا ترتبط بأثر الجغرافيا في تاريخ تونس؛ فوقف عند التأثير الذي مارسه البحر والصحراء في التاريخ التونسي، وعالج الباحث البنية الاجتماعية في تونس خلال العصر الوسيط واتبه إلى التعدد الإثني واختلاف النصوص في الحديث عن هذا التعدد. كما استعرض في فقرات وضعية أهل الذمة وعلاقتهم بالمسلمين مسجلاً تذبذب هذه العلاقات وداعياً إلى التخلي عن الصور النمطية التي ميزت عادة دراسة هذا الموضوع. وخصص محمد الطاهر المنصوري فصلاً للبنى الذهنية في البلاد التونسية، وكما ركز على التنوع الاجتماعي، أكد الباحث التنوع الفكري الذي ميز تاريخ تونس الثقافي، والذي يعود إلى فترة ما قبل الإسلام.

هذه هي المجالات الكبرى التي اشتغل فيها فقيدينا، غير أنه لم يكن محصوراً فيها، ولا أدل على ذلك من مقالاته المتعددة في المجالات المتخصصة ومشاركته الواسعة في الندوات والمؤتمرات الدولية بعروض دراسات لا ترتبط بهذه الميادين. كما أنه كان متابِعاً جيداً لما ينشر من كتب ودراسات في العالم العربي. ويرتبط بشبكات بحثية دولية في أميركا واليابان وفرنسا واليونان والعالم العربي. فقد كان أستاذاً زائراً محاضراً في كبريات الجامعات في هذه البلدان. كان الطاهر المنصوري، الاجتماعي بطبعه محافظاً على شبكاته البحثية متابِعاً لها إلى آخر رمق لم ينل من هذا التواصل لا بعد المسافات ولا الحالة الصحية التي عاشها في السنة الأخيرة. كان الطاهر المنصوري مؤرخاً كاملاً، قارئاً جيداً للنصوص المخطوطة والقديمة، ملماً بخباياها، وقادراً على فك رموزها، ساعده في ذلك امتلاكه وتحكم في ناصية اللغتين العربية والفرنسية، وقدرة على إدراك كنه النصوص الإنكليزية والإيطالية والإغريقية.

كان محمد الطاهر المنصوري كريماً سخياً في علاقاته، وصاحب القلب الكبير مع طلابه وزملائه، وإن بدا في بعض الأحيان صارماً في أحكامه لا تلومه في الله لومة لائم، وبدا هذا السخاء في الوقت الذي يكرسه لمتابعة أعمال طلبته، وفي فحصة العميق لكل ما يعرض عليه من أعمال للتقييم أو من أطاريح جامعية للمناقشة.

هذه الأعمال ستجعله حياً بيننا حاضراً كلما أثيرت مواضيع الدراسات البيزنطية في العالم العربي. لقد استطاع أن يقرن اسمه بكبار المؤرخين في العالم من أمثال جاك لوغوف وفرانسوا دوس وجيوفاني ليفي وغيرهم، ولا تذكر أسماء هؤلاء إلا ويتمّ استحضار اسم كبير: محمد الطاهر المنصوري.

عبد الرحيم بنحادة  
نائب رئيس التحرير